٨
الذكر
برمجة ذكية للإيمان

obeikandl.com

obeikandl.com

الذكر .. برمجة ذكية للإيمان

((إذا شاهدت في إخلاصك الإخلاص، فقد احتاج إخلاصك إلى إخلاص)).

حكمة صوفية

شـاع في نهاية القرن العشرين في كتب تطوير الذات، وبخاصة بحوث المعالجين النفسـيين اسـتعمال ما يطلقون عليـه التوكيـدات **affirmations**، ومهمتها الأسـاس تصحيـح اعتقاد الإنسـان عن نفسـه، وهي تنبع من مسـلمة مهمة لـدى علماء النفس تقول: إن ما يشـعر به الإنسـان هو ما يفكر فيه، ومن ثم فإن أمكن برمجة عقله الباطن بأفكار إيجابية، فإنه سيشـعر بشكل إيجابي، وبحسب عشرات الكتب التي قرأتها، فإن الإنسـان إذا واظب على قراءة توكيد معين، مثل: (أنا واثق من نفسي وقدراتي) وكرر هـذه العبـارة كل صباح ومسـاء عدداً كبيراً مـن المرات، فإنه يصبـح بالفعل واثقاً من نفسـه وقدراته. ويفسرون ذلك بأن العقل الباطن الذي يتولى إدارة مشـاعر الإنسـان إلى حد كبير (بحسـب زعمهم) يتبنى هذا التفكير الذي يمليه التوكيد السـابق، ويبدأ الإنسـان فعلاً يشـعر بالثقة بنفسـه وقدراته. ويؤكدون أنه كلما زاد تكرار العبارة زاد رسوخها بشرط أن تكون عبارة إيجابية بمعنى أنك لا تقول: (أنا لا أشك في قدراتي)، بـل تقـول: (أنا أثق بقدراتي)، لأنه بحسـب رأيهـم، فإن العقل الباطـن يدرك الصور فقط، ويتعرف إليها، ولا يقرأ العبارات، ومن ثم فالنفي ليس له معنى.

وكـما يعلـم معظم من يقرأ في علم النفس أن العقـل الباطن بوصفه نظرية لم يتم التحقق منها بشكل قاطع، ولكن تبنيها يساعد على فهم كثير من أسرار النفس الإنسانية، ومـن ثم فمن المفيـد الإبقاء عليها، وتفعيلها بشـكل ذكي في محيط النفس الإنسـانية.

وإذا كان من المعروف أن أول من افترض وجود العقل الباطن هو «سـيجموند

حتى في الصلاة نسبح ربنا -عز وجل- في سجودنا، ثم نستغفره في الجلسة بين السجدتين، هل ثمة حكمة؟

دعونا على سبيل المثال نحاول التعرف إلى التسبيح والاستغفار. التسبيح في أصله اللغوي هو (س ب ح) بمعنى(نزه) ومن ثم فتسبيح الرب سبحانه هو تنزيهه عن النقائص وتمجيده بالكمال المطلق.

وقد جاء في القرآن بألفاظ عدة:

سبحان - سَبَّح - يسبِّح - سَبِّح.

وقد ورد بهذا الترتيب نفسه أيضاً في القرآن، فسبحان بمعنى أن الله سبحانه منزه قبل أن يوجد من ينزهه.

وسَبَّح تعني أنه مضت سنة المخلوقات على التسبيح، ويُسبِّح تعني أن مخلوقات الله ما زالت تُسبِّح.

وسَبِّح إذاً أمر إلهي لمحمد ﷺ ولمن اتبعه بأن يسبحوا، فالترتيب منطقي جداً.

الاستغفار أصله (غ ف ر) ومعناه لغويًا: الستر والتغطية، ومن ذلك كما في لسان العرب غفر الله ذنوبه أي سترها. ويفيد في المصطلح محو الذنوب.

وقد لفت نظري تعريف للمغفرة أورده الدكتور جون جري مؤلف كتاب: (كيف تحصل على ما تريد وتحب ما لديك) وهو أيضاً مؤلف الكتاب الشهير (الرجال من المريخ والنساء من الزهرة) يقول الدكتور جري: الغفران هو التخلص من نزعتنا لتحميل الآخرين مرورنا بالأزمات في هذا العالم.

هل من سر خلف ارتباط التسبيح بالاستغفار في حياة المؤمن؟

obeikandl.com

لنأخذ المثال الآتي:

تصور أنك تبني في منزلك مظلة لسيارتك مجاورة لمنزل جارك، وفي أثناء العمل مر عليك الجار وطلب إليك أن تتنبه إلى تثبيت الحديد في أثناء الإنشاء احتياطاً لأي عاصفة محتملة. لم تهتم بما طلبه الجار، وهبت عاصفة في المساء، وسقط جسر من الحديد على منزل جارك، وهشم سيارة الجار، ما فرصتك في أن يسامحك الجار ماديًّا ومعنويًّا؟ الإجابة تعتمد بشكل كبير على حالة الجار المادية والنفسية.

إذا كانت السيارة مشتراة بالتقسيط، وتشكل نسبة كبيرة من دخله الشهري، وليس لديه رصيد يسمح بشراء سيارة أخرى، ففرصتك في المغفرة أقل.

إذا كان الجار صعب المراسٍ وقاسيًّا، ففرصتك في التسامح أقل وأقل.

أما إن كان الجار غنيًّا جدًّا، يملك ثروات هائلة وكريماً جداً وودوداً لم يؤثر الحادث في حياته في نفسه أو أولاده، فإن فرصتك هنا في التسامح والمغفرة شبه مضمونة.

ولله -عز وجل- المثل الأعلى، فعندما نقول: «سبحانه» ننزه الرب عن الاحتياج إلى أي مخلوق أو الشح أو البخل وخزانته لا تنفد، ولا تنقصها الذنوب أو المعاصي إذاً من المناسب جدًّا للعبد المذنب أن يسبح الرب -عز وجل- ويستغفر، ولسان حاله يقول: يا من لا تضره معصيتي، ولا تنفعه طاعتي، ولا ينقص من ملكه شيء بسببي، يا رحيم، يا ودود، يا قريب، يا مجيب، اغفر ذنوبي، وقريباً من هذا المعنى أورد ابن الأثير في النهاية: (التسبيح فيه نفي النقائص والمعايب عن الله تعالى، والاستغفار فيه طلب الستر لذنوب العبد وعيوبه ووقايته من شرها، فإذا قرن العبد بينهما تضمن ذلك إقراره بكمال الرب تعالى وتنزيهه عن العيوب والنقائص مع الإقرار بنقص العبد وتقصيره وافتقاره إلى الله تعالى وإلى ستره ووقايته وغفرانه).

وقدوتنا ﷺ كان يتمثل القرآن في هذا، فيقول: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم، اغفر لي.

obeikandl.com

تأمل أيضاً اقتران التسبيح بالحمد، فأي نعمة أعظم من كمال الله -عزوجل- وغناه عن مخلوقاته وعن الصاحبة والولد وعدم حاجته سبحانه لولد ولا شريك ولا ولي.

تخيل حال الكون وسكانه لو أن القيوم عليه له شركاء أو ولد أو أولياء!

وهل أفسد الأمم منذ القدم إلا أن القائمين على أمورها ذوو صاحبة وولد ولهم شركاء وأولياء؟!

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾.

تأمل:

«**سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته**» استفراغ لكل ما يمكن من وحدات القياس.

عدد خلقه: عدد.

زنة عرشه: وزن.

مداد كلماته: مساحة.

أما الرضا فهو غير قابل للقياس.

«لاحول ولاقوة إلا بالله».

ألا يثير انتباهنا في هذا الذكر العظيم ارتباط الحول (التحول من حال إلى حال) بالقوة. لنتذكر قانون الفيزياء الراسخ الذي يشترط وجود قوة لأي تحول للمادة.

الدعاء:

ما الوظيفة الحقيقة المنوطة بالدعاء، والمقصود هنا دعاء الطلب، وليس دعاء الثناء، خلق الله الإنسان، وسخر له ما في الأرض أو بشكل أدق كما ورد في الحديث القدسي:

obeikandl.com

«خلقتك من أجلي وخلقت الكون من أجلك، فلا تنشغل بما خلق لك عما خلقت له».

تنقسم الظروف المحيطة بالإنسان إلى قسمين رئيسين:

١. قسم يقع تحت إرادته وفي مكنته.

٢. قسم يخرج من دائرة إرادته وإمكاناته.

وإذا تدبرنا سير الأنبياء عليهم السلام وخاتمهم الأعظم محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم، يبدو بجلاء أنهم لا يضعون الدعاء في غير موضعه، فموضع الدعاء يتأكد من وجهة نظرنا في القسم الثاني، وهو الظروف والأمور التي ليست في مكنة الإنسان، وأوضح مثال على ذلك أحداث غزوة بدر، فقد استنفد الرسول صلى الله عليه وسلم كل الوسائل المتاحة له بوصفه رسولاً وقائداً ومحارباً، ويتضح من مسار المعركة أن الدعاء جاء بعد استكمال كل الاستعدادات، بل قبيل المواجهة الحاسمة بلحظات، وتدل سير الأنبياء عليهم السلام على سيرة أو سلوك مشابه، ويأتي الدعاء في المسائل المقدور عليها من قبل الإنسان لطلب التسديد والتوفيق وإصابة ما يقع في دوائر النفع الحقيقي للإنسان في دنياه وآخرته.

حاول أخي القارئ، أن تتذكر الأدعية التي تضج بها مساجدنا في رمضان، فستجد أن الدعاء قد حمل ما لا يحتمل، ووضع في غير موضعه، بل قد يقع بعض الدعاة في عبارات تشي بعقائد أهل الجبر، وهو لا يشعر.

كيف نميز بين ما هو في مكنتنا، وما ليس في إمكاننا؟ لا شك في أن هذا أمر ليس باليسير، غير أنه يجب أن يستقر في أذهاننا أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، وأن استنفاد الأسباب واجب على القادرين؛ لكي يؤدي الدعاء دوره.

ويبدو أن الدعاء في الأحوال الاعتيادية، وليس المعجزات الخاصة لا ينقل الإنسان من دائرة غير الممكن إلى دائرة الإمكان، ما الذي يعنيه هذا القول؟ تصور أن إنساناً يرغب في إنجاب ذرية، فهل تتوقع له استجابة لو ظل يدعو بالليل والنهار وهو غير متزوج، الزواج مقدمة أساس لحصول الذرية، وهو الذي ينقل الداعي إلى دائرة الممكن، وعلى هذا يمكن قياس الحالات الأخرى.

يؤلمني جدًّا عندما أسمع أحد أئمة الحرم المكي، وهو يردد في العشر الأواخر من رمضان "اللهم، حرر المسجد الأقصى"، فشعر بخجل عظيم من الرب تبارك وتعالى، حتـى إنني لا أؤمن على هذه الدعوة، فهي عندي شـديدة الشـبه بـما يحكى عن اليهود عندما قالوا: ﴿ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾.

والحديـث عن الدعاء والمسـاجد لا بد أن يجرنا إلى إسراف بعض أئمة المسـاجد في تكلف الأسـجاع، حتـى لو أخرج الدعاء عن مقصده، بل ربـما أوقعت الداعي في نقيض مطلوبه.

تأمـل أخي القـارئ، في بيت الله الحـرام، وفي العشر الأواخر مـن رمضان، وفي دعاء ختم كتاب الله، يدعو إمام الحرم المكي بقوله: «اللهم، ألبسنا به الحلل وأسكنا به الظلل» يقصد القرآن الكريم، والمعلوم عند أي متدبر للقرآن الكريم أن الظلل والظلة تأتي دوماً في سياق العذاب والعقاب والحساب والتخويف، وقد وردت غير مرة:

كقوله تعالى: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ ﴾ وقولـه تعـالى: ﴿ لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾. ولا شـك في أن نيـة الإمـام حسـنة، ولربـما كان يقصد الظلال، ولعل برمجته الذهنية المتجهة نحو الأسـجاع قد أفقدته الإحسـاس بالمعاني، وكثيراً ما تسـمع المصلـين يؤمنون على هذه الدعوة أو غيرها، ويبكـون دون أن يفقهوا معناها، وإنما يأخذهم النحيب والبكاء على الألحان والأسجاع، وقد مر بهم منذ لحظات كلام الرب -عزوجل- الذي لو أنزل على جبل لخشع، وتصدع، ولا يحرك لهم ساكناً.